



الجزء الرابع من المجلد الثاني

ربيع الثاني سنة ١٣٢٥ الموافق مايو (ايار) سنة ١٩٠٧

تبذير المكبراء

الاسراف في الغالب آفة من آفات الحضارة ولا اسراف اذا لم توجد حضارة وعلى نسبة حضارة الامة وغناها يكون في الاكثر بذخها واسرافها وان شئت فقل اسراف اهل البسطة والغنى . مثاله ما نسمعه لهذا العهد عن ديار الغرب وايغال الموسرين من اهله في الاتفاق على كل ما طاب وحلا وبهرج وزخرف فينفق انفراد في الشهوات والتبرج ما يكفي لالة عشرات الالوف اعواماً . وتأينا عنهم انباء لا تكاد تصدق لولا ثناصرها واتفاق المشاهدين لها عياناً على اثبات ما يقال ويروى . ولو استقرت تاريخ الامم لرأيت الشيء الكثير من ذلك قبل الالف من السنين وآخر من انتهت اليها اخبار ترفهم الرومان واليونان لما بلغت الحضارة بينهم حداً .

وهذا الشرق ايضاً ما خلا في كل دور من ادواره من منصرفين كانوا اخوان الشياطين واسراف اليوم يختلف عن اسراف امس فانه كان في غابر الاحقاب مقصوراً على رجال الدول والحكمة النافذة عند الملوك والولاطين اما اليوم فالاسراف يكون من الرعاة والرعايا معاً خصوصاً بعد ان انتقلت الثروة الى الافراد . وتاريخ العرب لم ينقل اليها سوى اخبار الامراء والملوك وما عني المؤرخون بنقل اخبار الافراد من الاغنياء ولذلك كان علينا اذا رغبت ان نستشهد بتاريخنا ونبحث في حالتنا الاجتماعية في القرون الغابرة ان نقصر على ايراد ما انتهى اليه علمه من اخبار اولئك العظماء وهي لا تتخلو من عبرة وتسلية .

خذ لك امثلة لا تستغرب بعدها زوال الممالك الشرقية ونقرأ فيها نموذجاً من نفثهم

سيف دورهم ونصوهم وافراحهم ومجتمعاتهم . فقد رأث الريميكية زوج المعتمد بن عباد
الاندلسي الناس يشون في الطين فاشتبهت المشي فيه فامر المعتمد فحقت اشياء من الطيب
وذرت في ساحة القصر حتى عمته ثم نصبت الغرايل وصب فيها ماء الورد على اخلاط الطيب
وعجنت بالابدي حتى عادت كالطين وخاضتها مع جواربها وغاضبها في بغض الايام فانسمت
انها لم تَرَ منه خبراً قط قال ولا يوم الطين فاستحقت واعتذرت .

ولما افتقد ابن ابي عامر الدرود في ايام الحكم الاندلسي صنع قصرًا من فضة لصبح ام
هشام وحمله على رؤوس الرجال فجلب حبيا بذلك وقامت بأمره عند سيدها الحكم وحدث
الحكم خواصه بذلك وقال ان هذا النقي قد جلب عقول حرمنا بما يتخفهم به .
وكان في دار القاهرة بالله عشرة آلاف خادم من الخصيان ويفرق الضحية من الابل
والبقار بعين الف رأس ومن الغنم خمسين الف رأس . وكان عز الدولة بن بويه متوسماً
في الاخراجات والكف وكان يتناول اخذ للموظفين بايقاد الشمع امامه الف من في كل شهر .
ولما بعث ملك الروم يتوعد المستكني بالله بالقتال استعرض عسكره فكان جملة العسكر
المصفوف مائة الف وستين الفا ووقف الغلمان بالزينة والمناطق الذهبية وكذلك اخدم
والخصيان ووقف الحجاب وكانوا سبعائة وزينت دار الخليفة بالتور والبسط فكانت جملة
التور المعلقة ثمانية وثلاثين الف ستر من الديباج المذهب وكانت جملة البسط اثنتين
وعشرين الف بساط وكان في جملة الزينة شجرة من ذهب وفضة تشتمل على ثمانية عشر غصناً
وادراقها من ذهب وفضة واغصانها ثمايل بحركات موضوعة وعلى الاغصان طيور خضر من
ذهب وفضة يتفخح الريح بها فيصفر كل طير بلفته .

وحكى الصابي عن بعض الرسل قال: دعينا الى باب مسعود يعني ابن محمود بن سبكتكين
بغزنة فشهدنا بالباب اصناف العساكر وملوك جرجان وطبرستان وخراسان والهند والسد
والترك وقد اقيمت التيلة عليها الامرة والعماريات الملبسة بالذهب مرصعة بانواع الجواهر
واذا باربعة آلاف غلام مررد وقوف سباطين وفي اوساطهم مناطق الذهب وابيديهم اعمدة
الذهب ومسعود جالس في سرير من الذهب لم يوضع على الارض مثله وعليه الفرش الفاخرة
وعلى رأسه تاج مرصع بالجواهر والياقوت وقد احاط به الغلمان الخواص باكل زينة ثم
قام مسعود الى سباط من فضة عليه خمسون خواناً من الذهب على كل خوان خمسة اطباق
من ذهب فيها انواع من الاشربة فسقام الغلمان ثم قام مسعود الى مجلس عظيم الافطار في
الف دست من الذهب والياقوت كبار خسرانية فيها انكيزان وعلى كل طبق زرافة ذهب
واطباق ذهب فيها انسك والعنبر والكانفور واشجار الذهب مرصعة بالجواهر والياقوت

وشموع من ذهب في رأس كل شمع قطعة من الباقوت الآخر تلع لمعان النار واشجار العود قائمة بين ذلك وفي آخر المجلس رحي من ذهب تطحن المسك والكافور والعنبر وفي جوانب المجلس بحيرة في جوانبها من الجواهر والعنبر والقصور شي يقصر الوصف عنها وذكر اشياء آخر تحير الاسماء والاسماع - قاله ابن فضل الله العمري في مسالك الابصار

ومما يمد في باب ترف الكبراء وسرفهم ما رواه المقرئ من أعدار (طعام اختان) بني ذي النون ملوك طابطة من الثغر الجوفي في الاندلس وكانت لم دولة كبيرة وبلغوا سيف البذخ والترف الى الغاية ولم الاعذار المشهور الذي يقال له الاعذار الذنوبي وبه يضرب المثل عند اهل المغرب وهو عند عرس بوران عند اهل المشرق . وبوران هي ابنة الحسن بن سهل امرأة المأمون قالوا لما دخل اليها ثرت عليه جدتها الف بلوثة من اتقس ما يكون فامر المأمون بجمعهم فاعطاه بوران ثم اوقد تلك الليلة شمعة عنبر فيها اربعون مناً (رطلاً) وقالوا ان المأمون لم يرقه هذا الاسراف وقال فيه . واقام المأمون في معسكر الحسن سبعة عشر يوماً بعده له كل يوم ولجميع من معه ما يحتاج اليه وحلح الحسن على القواد على مراتبهم وحملهم ووصلهم وكان مبلغ ما لزمه خمسين الف درهم وكتب الحسن اسماء ضياعه في رقاع ونثرها على القواد فن وقعت بيده رقعة منها فيها اسم ضيعة بعث فتسلها واوعز الى البوتية باحضار السفن لاجازة الخواص من الناس يدجلة من بغداد الى قصور الملك بمدينة المأمون لخصور الوليمة فكانت الحرافات المدة لذلك ثلاثين ألفاً اجازوا الناس بها أخريات نهارهم .

والمتنب لهذه الاخبار يعثر منها على الكثير ولا سيما في ايام مباهاتهم ولا ثمهم واعراسهم فقد روى المؤرخون ان ابا الجيش خمارويه بن طولون صاحب مصر لما زوج ابنته اسماء للمعتض بالله العباسي على صداق قدره الف الف درهم جيزها ابوها بجهاز لم يعمل مثله حتى قيل كان لها الف هاون ذهب وشرط عليه المعتض ان يحمل كل سنة بعد القيام بجميع وظائف مصر وارزاق جنودها مائتي الف دينار ويقال ان المعتض اراد بزواجها انتقار الطولونية وكذا كان . وذكر ابن الاثير في حوادث سنة ثمانين واربعمائة كيف نقل جهاز ابنة السلطان ملكشاه السلجوقي الى دار الخلافة على مائة وثلاثين جملاً مجللة بالديباج الرومي وكان أكثر الاحمال الذهب والفضة وثلاث عماريات وعلى اربعة وسبعين نفلاً مجللة بأنواع الديباج الملكي واجراسها وقلائدها من الذهب والفضة وكان على ستة منها اثنا عشر صندوقاً من فضة لا يقدر ما فيها من الجواهر والحلي وبين يدي البغال ثلاثة وثلاثون فرساً من الخيل الزائقة عليها مراكب الذهب مرصعة بأنواع الجوهر ومهد عظيم كثير الذهب وسار بين يدي الجيزاء بعد الدولة

كوقرائين والامير برسق وغيرهما وشراجل نهر معلى عليهم الدنانير والثياب وكان السلطان قد خرج عن بغداد متصيداً ثم ارسل الخليفة - المنندي بامر الله - الوزير ابا شجاع الى تزكيات خاتون زوجة السلطان وبين يديه نحو ثلثائة موكبية ومثلها مشاعل ولم يبق في الحرم دكان الا وقد اشعل فيها الشحنة والاثنان واكثر من ذلك وارسل الخليفة مع ظفر خادمه محفة لم ير مثلها حسناً وقال الوزير لتركن خاتون - سيدنا ومولانا امير المؤمنين يقول ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها وقد اذن في نقل الوديعة الى داره فاجابت بالسمع والطاعة وحضر نظام الملك فمن دونه من اعيان دولة السلطان وكل منهم معه من الشمع والمشاعل الكثير وجاء نساء الامراء الكبار ومن دونهم كل واحدة منهن منفردة في جماعتها وتجملها وبين ايديهن الشمع الموكيات والمشاعل يحمل ذلك جميعه الفرسات ثم جاءت الخاتون ابنة السلطان بعد الجميع في محفة مجللة عليها من انذهب والجواهر اكثر شي وقد احاط بالحفة مائتا جارية من الاتراك بالمراكب العجيبة وسارت الى دار الخلافة وكانت ليلة مشهودة لم ير بغداد مثلاً فلما كان الغد احضر الخليفة امراء السلطان لسماط امر بعمله حكى ان فيه الف من من السكر وخلع عليهم كلهم وعلى كل من له ذكر في العسكر وارسل الى الخاتون زوجة السلطان وإلى جميع الخواتين وعاد السلطان من الصيد بعد ذلك

وهكذا كانت اعمال اولئك الرجال تصدر عنهم بلا روية ولا حساب لان الرعايا والبلاد والثروة كانت لم يصرفون فيها بما يشاءون وابن عذا الترف من ذاك الاقتصاد الذي اثر عن عمر بن عبدالعزيز وقد امر جليسه رجاء بن حيوة اب يشتري له ثوباً بستة دراهم فاتاه به فجسه وقال هو على ما احب لولا ان فيه لينا قال رجاء: فبكيت قال: فما يبكيك قال: اتيتك وانت امير بثوب بستائة درهم فجسسته وقلت هو على ما احب لولا ان فيه خسونة واتيتك وانت امير المؤمنين بثوب بستة دراهم فجسسته وقلت هو على ما احب لولا ان فيه لينا فقال: يا رجاء ان لي نفساً توافقه تافقت الى فاطمة ابنة عبد الملك فتزوجتها وتافقت الى الامارة فوليتها وتافقت الى الخلافة فادركتها وقد تافقت الى الجنة فارجو ان ادركها. وقال: قومت ثياب عمر بن عبدالعزيز وهو يخطب باثني عشر درهماً وكانت قباء وعمامة وقيصاً وضراويل ورداء وخفين وقلنسوة.

بل ابن ذاك الاسراف من زهد نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام وديار الجزيرة ومصر فانه كان لا يأكل ولا يلبس ولا يتعريف الا في الذي يخصه من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الفتيمة ومن الاموال المرصدة نصائح المسلمين ولقد شكت اليه زوجته من الضائقة فاعطاها ثلاث دكاكين في حمص كانت له يحصل له منها في السنة

فهو العشرين ديناراً فلما استقلتها قال: ليس لي الا هذا وجميع ما بيدي انا فيه خازن للمسلمين لا اخونهم فيه ولا اخوض نار جهنم لاجلك . وكذلك كان خليفته صلاح الدين يوسف ابن ايوب فانه كان علي كثرة فتوحه وبسط يده على ذخائر وكنوز عظيمة لم يدخر منها شيئاً وفوقه في وجوه المبرات واقامة المعالم الخيرية حتى اذا لحق بربه لم يخلف في خزائنه غير دينار واحد صوري واربعين درهما ناصرية ولما بنى له احد رجاله في دمشق قصرًا مشرفًا بهما وبخه على عمله ولم يرض ان يسكنه لما اتفق عليه من النفقات الفاحشة .

و بالجملة فتاريخ الامة ينعي على المسرفين اعمالهم كما ينادي بالثناء على المقصدين من رجالها فان جاء مثل ابن عباد وابن ابي عامر والقاهر والمستكفي والحسن بن سهل فقد جاء امثالهم عمر بن عبد العزيز ونور الدين وصلاح الدين وكل منهم ذكر بماله ولقي جزاءه في قصده واسرافه .



الانتحار

سلام على الدنيا سلام مودع رأى في ظلام القبر انسا ومغنا

الانتحار واسبابه

الانتحار قتل النفس . ولا يعمد المرء اليه حتى تضيق به الدنيا او تضيق به نفسه . ولا يبعث الانسان على الانتحار باعث اشد من ضياع امل له كان يعلق به قلبه او نعمة زالت كان يرح في نعيمها او مال فقدته على غير رغبة منه او أسروقه فيه وهو لا يرجو منه فكما كآ او ذنب جناه ولا يرى له من الجزاء عليه خلاصاً او غرام كوى فؤاده وهو لا يرجو ان يطفي ناره بقاء الوصال .

وهناك باعث اشد من تلك البواعث واعني به سوء التربية وتقص التهذيب . فان النفس الساذجة كالسيف البتار الذي اغفلته الصياقل او كاللحجر الكريم لا يبدو بهاؤه حتى يزيل صدأه العامل الحاذق فيبهر الابصار بنوره . والتهذيب يعقل النفوس و يظهر الفضيلة الكامنة .

وانك ترى اخا الجهل اذا ثارت براسه سورة الغضب ولم يكن الانتقام طوع بانه اواجب حبا اخذ يرشده وغشى على بصيرته ولم ينل اربه او فقد مالا قليلا تمب في الحصول عليه يضيق به عقده ويقتل نفسه بيده